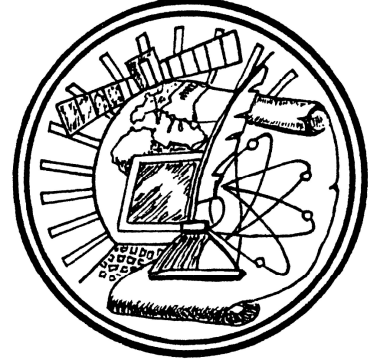


تجارب في الترجمة....

"الروض العاطر..." للنفزاوي

قصة توليد النص الروسي



الميميتري ميكولسكي الدكتور الأستاذ في معهد الاستشراق لأكاديمية العلوم الروسية.

كانت الحضارة العربية الإسلامية إحدى الحضارات العالمية التي تتسم بالإحساس الجسمي الطبيعي الصحيح. ومن المعروف أن العرب المسلمين قد تمكنوا من تحقيق انجازات بارزة في شتى مجالات النشاط البشري. فأحد هذه الانجازات التي لا جدال في أهميتها هي الثقافة الجنسية الظرفية التي تكوّنت في ظل الحضارة العربية الإسلامية.

فمن المعروف أنه في حضون الحضارة المسيحية، وذلك في أوربا الغربية الكاثوليكية وفي بلاد الروم الأورثوذكسية والأقطار المتأثرة بثقافتها على حدّ سواء كانت تغلب نظرة الازدراء للجانب الجسديّ للكيان البشريّ. وعلى عكس ذلك وضع الدين الاسلاميّ العلاقات الجنسية في إطار محدّد عقلائيّ. فنشأ في مضمار الأدب العربيّ عديد من النكت والملح والحكايات والقطع الشعرية ذات الطابع الآروطيّ وهي مبنوثة في مختلف مؤلّفات الأدب. هناك تفاصيل آروطية في السير والحكايات الشعبية، إنما نسبتها ليست كبيرة كما يعتقد أحيانا.

أمّا المؤلّفات الآروطية بالذات فهي كما يتبيّن من خلال التحقيق فعلا قليلة العدد. هذا ويذكر المستعرب الألماني الكبير كارل بروكيلمان (1868 - 1956) في معجمه الشامل للأدباء العرب وآثارهم فقط تسعة مؤلّفين كانوا يتخصصون في هذا الموضوع. ومن الطريف أن خمسة منهم من أبناء المغرب العربيّ ممّا يشير إلى كون مفكرّي هذه الربوع قد قدّموا اسهاما مميّزا في خزانة الثقافة الآروطية العربية الإسلامية.

أما اسم الشيخ سيدي محمد بن محمد النفزاويّ فيلمع لمعان القمر بين كوكبة النجوم هذه. وهو أيضا من أبناء المغرب. ذلك وتتعد ترجمة حياته ولكنه من الظاهر أنه كان يعيش في فترة ملتقى القرنين الخامس عشر والرابع عشر. فبالرغم من مفاخرها الأدبية الواضحة من الأرجح أنّ رسالة النفزاويّ لم تخرج آنذاك عن النطاق الضيق من أتباع البلاط الأميري الذين كما يبدو كانت قد ألّفت من أجلهم. ويشهد بضيق انتشار الرسالة وجود مخطوطتين لها فقط، حيث يحتفظ إحداها في باريس وثانيتهما في مدينة غوطة الألمانية . أما المخطوطة الباريسية، فقد غنمت من قبل العساكر الفرنسيين في البلاد الجزائرية أثناء حرب العدوان الاستعماريّ. فتمّ تعرّف القارئ الأوروبيّ على "الروض العاطر" بفضل الترجمة الفرنسيّة التي صدرت في سنة 1850 . أما الطبعتان العربيتان فقد ظهرتتا في سنة 1900-1901 (في مدينة فاس، وهي طبعة بالحجر على الحجر) وفي سنة 1928 (في مدينة تونس ، وهي طبعة عادية).

لقد وقعت الرسالة في متناول صاحب هذه الأسطر بالصدفة. وذلك أثناء زيارة إلى تونس في عام 1986 مع وفد اتحاد الأدباء السوفيّات. فقد تشرّفت بالحصول على هذا الكتاب هديّة من زميلي الشاعر التونسيّ عبد الله القاسميّ . أنّها كانت طبعة شعبية تشمل الى جانب الرسالة المذكورة على أثر آخر للشيخ النفزاوي وهو "كتاب الإيضاح في علم النكاح". وسرعان ما تيقّنت قيمة الجوهرة التي منّ بها عليّ القدر، وعزمت على ترجمة هذا النص غير المثلّم ونشره يوما ما، إنّما كان من المستحيل أن يحلم المرء بذلك في ظروف النظام السوفيّاتي.

وسبب ذلك يعود في نهاية المطاف الى كون الثقافة الأدبية الروسية تتميّز تاريخيا بدرجة عالية من التزهد، وأما النزعة الأوروبية فضعيفة التطور فيها.

لقد تهيّأت الظروف للعمل على ترجمة الرسالة ونشرها في الفترة ما بعد السوفيّاتية. وفي أثناء العكوف على الترجمة كنت أسترشد بأفضل نماذج ترجمة الآثار العربيّة إلى اللغة الروسيّة التي وضع مبادئها وصلّ أسلوبها في القرنين التاسع عشر والعشرين كلّ من سينكوفسكي (1800 - 1858) وسابلوكوف (1804 - 1880) وكريمسكي (1871 - 1942) وكراتشكوفسكي (1883 - 1951) وساليي (1899 - 1961) وغيرهم من الباحثين والمترجمين الروس الذين كانوا يستقصون آثار الأدب العربيّ الرفيع والأدب العربيّ الشعبيّ على حد سواء.

ومن بين المهامّ الشاقّة التي كنت أواجهها في عمليّة تحقيق ترجمة الرسالة كانت تلحّ عليّ مهمّة وضع الأسلوب اللغويّ الروسيّ الملائم لنقل المفاهيم الأوروبيّة التي تعبّر عنها اللغة العربيّة بالطريقة الطبيعيّة جدّا. ونظرا لخصائص التقاليد اللغويّة الروسيّة كان يترتّب عليّ استعمال الكلمات الروسيّة من غير الترجمة ولكنّ مصحوبة بالشرح حيث كنت أوضّح معانيها.

هذا وأجرؤ أن آمل بأن مجهودي المتواضع لم يذهب عبثا، إذ أن ترجمة "الروض العاطر" قد نشرت ثلاث مرّات وذلك في سنوات 1994 و 1997 و 2008. ومع ذلك لا أعتقد أن عملي في هذا المجال قد انتهى لأنّه لا يزال أمامي غرض تعريف القارئ الروسي عليّ رسالتي كلّ من التيجانيّ والتيفاشي. وذلك له أهميّة كبرى

حيث تتقدّم بسرعة ما يسمى بالثقافة الجماهيرية التي تشوّه ملامح كافّة أوجه الثقافة الأصيلة بما في ذلك الثقافة الأروطيّة.

ديمتري ميكولسكي عضو أكاديمية العلوم الروسية، باحث مختص في التاريخ العربي والإسلامي، ترجم "مروج الذهب" للمسعودي وبعض أعمال عبد الحميد بن هذوقة إلى اللغة الروسية.